

كتب بالفرنسية

هي خلاصة اختبار قاس عماده الألم والأسى، لأناس خبروا التهجير والطرده والعسف والاحتلال، وثابروا بعزيمة وإصرار على النضال لاستكمال رحلة العودة إلى فلسطين بعد الخروج القسري منها.

حافظنا في القراءة على محور الرواية وهو نعيم وصديقه فؤاد، وأهملنا تفاصيل كثيرة ربما تكون مفيدة لمن عايشوا هاليفي وعرفوه، ذلك المناضل الذي غادر الحياة في ١٠/٧/٢٠١٣ في فرنسا ودفن فيها.

المصنع

يعيش نعيم في القدس، ويعمل في مطبعة تشبه "المصنع" وتضم نحو ٧٠٠ شخص، وقامت على أنقاض دار نشر تخصصت بترجمة أدب الخيال العلمي من اللغة الروسية إلى الإنجليزية، وما أتاح لها الازدهار حصولها على معونة، من الباطن، من ميزانية الأبحاث في وزارة

ذهاباً وإياباً

Allers Retours

Ilan Halevi

Paris: Edition Flammarion, 2005. 349 Pages.

يزاوج

كتاب إيلان هاليفي "ذهاباً وإياباً" (Allers Retours) بين السيرة الذاتية والتخيل والشهادة التاريخية، فالبطل المدعو نعيم هاكوهين (Naim Hacoheh) وهو هاليفي نفسه - المولود في المدينة الفرنسية ليون في سنة ١٩٤٣ من أبوين يهوديين، والذي يعمل كدبلوماسي لمنظمة التحرير الفلسطينية منذ سنة ١٩٨٢ ويصف نفسه، إذا اقتضى الأمر، بـ "اليهودي الفلسطيني" - كان مقرباً من رئيس السلطة الفلسطينية الراحل ياسر عرفات، وكان نائب وزير خارجية السلطة، وشارك في محادثات مدريد وواشنطن بصفته عضواً في

الوفد الفلسطيني. في روايته "ذهاباً وإياباً" ثلاثة أنواع من الشخصيات: الأولى حقيقية، تُذكر بأسمائها الصريحة، والثانية مستوحاة من الواقع تظهر بأسماء مختلفة، والثالثة من نسج الخيال ولا صلة لها بعالم الواقع وقد وضعها لخدمة الحكمة. تتفاعل هذه الشخصيات فيما بينها كي تنسج سرداً لحياة فرد هو "نعيم" (هاليفي) محور القصة، الذي شهد بألم العين كيفية صنع الحدث والتاريخ، وتشابك المصائر والأقدار. ومن التفاصيل الصغيرة المعاشة ومن المعاناة اليومية ينتقل إلى العناوين الكبيرة، وكل عبارة ترد

الدفاع الأميركية. ومن ثم اتجهت المطبعة إلى مجالات أخرى مثل الأدب والعلوم الإنسانية، وأنجزت في سنة ١٩٧١، وبأحدث تقنيات الطباعة، موسوعة في ١٦ جزءاً تضم المعارف الحديثة عن اليهود. وقد اختفت تقنية طباعة "اللينوتيب" في السنة نفسها، وأخلى صانع الكتاب الصبور مكانه لعامل عادي في مكتب.

بيئة العمل المتغيرة هذه وشروطها الجديدة بتمديد الدوام ست ساعات إضافية أسبوعياً وإلغاء بعض الامتيازات ستكون أرضاً خصبة لمشاريع نعيم النضالية، وبفضل صداقاته المتينة مع رفاقه انتُخب عضواً في لجنة العمال. وعلى الرغم من أن الانتخابات غير سياسية، فإن نعيم أبدى تعاطفه مع "حركة الفهود السود" في إسرائيل، التي دانت التمييز المتعدد الأوجه الذي يتعرض له يهود إفريقيا الشمالية والشرق الأوسط، أي "اليهود الشرقيين". وضاعفت الحركة تظاهراتها في الشارع، وشارك نعيم فيها مع بعض العمال، وكاد يخلط مطالبهم

المتعلقة بالأجور وعطشهم إلى الكرامة، بصراع الطبقات والعقيدة الثورية رأى نعيم أن العرب العاملين في المنشأة قسمان: واحد مؤهل يشغل مراكز مثل التجليد والتغليف، والآخر يعمل مياوماً في التنظيف والصيانة، وهؤلاء موضع سخرية من العاملين "المثبتين"، وكان العمال اليهود يطلقون عليهم تعبير "فتح"، وقد وجد نعيم في التسمية كنزاً مخفياً، فبطريقة ملتوية، عثرت الهوية المرفوضة على ملاذ لها.

الحادث

احتك نعيم بالعمال العرب في المؤسسة، وبصفتهم عضواً في لجنة لعمال كان عليه التدخل لحل المشكلات الطارئة، ومنها تعرّض عاملين عربيين هما مصطفى وجعفر، لحادث عمل لم ير فيه المسؤول الإداري اليهودي الشرقي أمراً ذا أهمية، بينما رأى نعيم فيه تمييزاً، فقادهما إلى مستوصف "نجمة داود الحمراء" في حي روميما

(Romema) في القدس، وهو حيّ يطل على الوادي، وكان أنشئ في بداية القرن العشرين على أرض بلدة لفتا، وجرى توسيعه في العشرينيات والثلاثينيات، في حين ظلت البيوت ذات الحدائق في البلدة العربية موجودة، والتي أعادت إلى ذهن نعيم شكل العمارة في المدن اليمينية. وقد تعرّف نعيم لاحقاً إلى أناس ولدوا أو عاشوا في لفتا قبل النزوح الذي أعقب مجازر ١٩٤٨، غير أنه آنذاك، بالكاد كان يعرف أن هذه المساكن التي كان يفتنه تراصفها كانت تحمل اسم قرية لم تعد موجودة. وبعد مصادرة هذه القطعة من فلسطين، لم تدمّر هذه المساكن ولم تُعطَ إلى مهاجرين جدد، كما حدث في عين كارم وغيرها من القرى والبلدات، وإنما بقيت فارغة كشاهد على ما جرى. عاين نعيم في المستشفى العربي كيف يكون الطب في ظل الاحتلال، وحرص على تسجيل وتوثيق حالة المصابين كي يحصلوا على إجازة وتعويض. واستغرب الطبيب العربي - المعارض للتعامل مع الاحتلال -

وكان الحلم يتحول إلى كابوس ينتهي بهربه وتوقيفه، لكنه، وقبل حلم العودة، كان يحلم بنُدْر رحيله. في نهاية سنة ١٩٦٩ راوده حلم واضح تماماً، عبارة عن محاولة قام بها مع صديقيه محمود ويوري لإقناع ستة فدائيين في منزل في أم الفحم بالتخلي عن سلاحهم، من دون نجاح. وفي الحادثة هذه التي يرويها، تأتي عبارة سيدة فلسطينية أن الوقت لم يحن بعد لنضال مشترك عربي ويهودي، لكنه سيأتي في يوم ما. وأتت زيارة دانييل كوهين - بنديت صيف تلك السنة نفسها كي تشكل حدثاً لدى نعيم ورفاقه. فبطل الثورة الطلابية في أيار / مايو ١٩٦٨ في فرنسا، كان يعيش في فرانكفورت بعد طرده من فرنسا، وقد التقى في زيارته تلك، خليل طعمة، عضو حزب ماتسبن (Matzpen)، المنتخب في سنة ١٩٦٧ رئيساً لاتحاد الطلبة العرب في الجامعة العبرية في القدس، وبصفته هذه التقى

"كريات شاول". وأخيراً، أدرك نعيم أنه يمضي نحو خمسين ساعة في الأسبوع يعمل ويعيش في "دير ياسين"، في مكان الجريمة نفسها.

الحلم

تعلم نعيم أن يجعل من أحلامه وسيلة لحل بعض مشاكله، ومن ذاكرته آلة لتزجية الوقت الطويل والتخلص من الملل والهرب من اللحظة الراهنة. فالمعركة هي بينه وبين الوقت، ويجب العودة دائماً إلى الزمن البعيد، إلى زمن سابق، كي يميز ما ورثه، وما أملي عليه في حياته، وما فعله لتغيير ذلك. في الماضي البعيد، كان "الخوف": الخوف من الثعابين مثلاً، وهو يراه متحدرًا إليه كإرث لا يد له فيه، وأيضاً اقتناعه بأن الخوف أتاه من الحرب التي فتح عينيه عليها، ومن حال العالم الذي وضعه والداه فيه، ومن خوفهما المنتقل إليه وراثته. في المنفى، كان يحلم بعودة متخفية إلى القدس،

سلوك هذا اليهودي ووصفه بـ "الرجل الطيب جداً". بيد أن نعيم شعر بالضيق: "أتراه يقدم وجهاً إنسانياً لهذا النظام الذي يصفه هو بالمتعذر إصلاحه؟" انفصل جعفر عنهما، وتابع نعيم ومصطفى طريق العودة إلى المنشأة وأخذاً سيارة أجرة من باب العمود، وطلب مصطفى من السائق الذي هو قريبه التوجه إلى دير ياسين. اضطرب نعيم، إذ ذكره الاسم بالمجزرة التي ارتكبت بحق مئات المدنيين، وبالسجناء في شوارع القدس. لم يكن يعرف موقع البلدة جيداً، فهي كانت عنده حدثاً وليست مكاناً. رأى نعيم أن دير ياسين غارت في أعماق الوعي الجمعي السييء. اسم البلدة عند أغلبية الإسرائيليين مقترن بـ "انزعاج" لا يمكن وصفه: إنه يستحضر فترة كريمة مظلمة، شبه منسية، لا تُذكر إلا سهواً. لكن البلدة بقيت وتميزت بنضالها ضد مصادرة الأراضي، وبات نعيم الآن يعرفها، وعلم أنها تقع في الضاحية الملاصقة للقدس، في مكان تم تغيير اسمه إلى

أحمد خليفة، رئيس اتحاد الطلبة الفلسطينيين في الأراضي المحتلة. وهذا الأمر لم يُرق للسلطات الإسرائيلية التي اتهمت طعمة في سنة ١٩٦٨ بالتآمر ضد الدولة وإقامة صلات بمنظمات إرهابية. وحظي طعمة في أثناء المحاكمة بدعم من قادة حزب ماتسبن، وبدعم دولي تصدّره إسما الفيلسوفين: برتراند راسل وجان بول سارتر، لكن على الرغم من ذلك حُكم على طعمة بالسجن تسعة أشهر، وبالإقامة الجبرية ستة أشهر في قريته الرامة.

وكان على نعيم أن ينتظر حرب ١٩٧٣ وتباشير حل تفاوضي وعودة فكرة الدولتين التي دُفنت منذ سنة ١٩٤٨، كي يدرك مغزى حلم كان يرى نفسه فيه في عمّان، في الجهة الأخرى. وبعد أعوام عدة، وجد نفسه في بيروت، لا في عمّان، وتساءل عن الوقت اللازم مجدداً كي يعود إلى الجهة الأخرى من القدس المقسمة.

فؤاد

يستذكر هاليفي، عبر

فؤاد، ابن يافا، ما كانته هذه المدينة الجميلة قرب الشاطئ، وكيف توسعت تل أبيب على حساب بيوتها الحجرية العتيقة، وكيف استولى اليهود عليها في سنة ١٩٤٨ وهو ابن خمسة أعوام. لا يكاد فؤاد يذكر إلاّ أصوات المتفجرات والقنابل ورشقات الرصاص ولجوءه مع أهله إلى الأردن وإلى عاصمتها عند أقرباء لهم. وقد أدى إلحاق الضفة الغربية بالأردن إلى جعل فؤاد مواطناً أردنياً، لكن الأمل بقي معلقاً في قلب الأمور رأساً على عقب من خلال "التحرير" و"العودة"... وهذا هو الحل.

ومن مصر عبد الناصر أتى نفسٌ قومي، وأصبح لفؤاد ورفاقه بطل جديد، واكتشف السينما وصوت أم كلثوم والدبكة. وفي ستينيات القرن العشرين تعرّف إلى حركة القوميين العرب والروك أند رول، والتحق بالاثنين في آن من دون تحفظ، وفي بيروت، حين تسجل في الجامعة الأميركية، اهتدى فؤاد نهائياً إلى الفعل الثوري. وبدأت منظمة التحرير

الفلسطينية الحديثة الولادة برعاية الجامعة العربية بتنظيم الكفاح المسلح، وكان الاقتناع هو أن اندلاع الحرب سيكون في مصلحة العرب، فهم الأكثر عدداً، والأقوى، وقضيتهم عادلة، فمحال ألاّ ينتصروا!

وبين عامه الجامعي في بيروت وعطلات الصيف في القدس راود فؤاد شعور بأن حكايته الشخصية ستتلاقى مع التاريخ نفسه، وأن خاتمته العودة إلى يافا. وفي ربيع سنة ١٩٦٧، غداة الحرب التي سمّاها الإسرائيليون "حرب الأيام الستة"، شعر فؤاد ورفاقه في حركة القوميين العرب بأن اللحظة الحاسمة وشيكة: الحرب؛ الثأر؛ عودة الحق؛ تحرير الوطن؛ الثورة الشعبية؛ الوحدة الشعبية، وأن جميع الشعارات ستصبح حقيقة.

نجح فؤاد في العودة إلى القدس قبل سقوطها، وبادر المحتل إلى اعتبار الغائبين عنها غير مقيمين. ودفعت الهزيمة جيل فؤاد بأكمله إلى الراديكالية على قدر يساهم، فاتجهوا إلى الاشتراكية: الطبقات؛

نعيم باريس كي يعود إلى فلسطين، والتقى في أم الفحم نواة المجموعة التي انشقت قبل عقدين وتحولت إلى "أبناء الأرض"، والتي نجحت في هز الهيمنة التقليدية للشيوخ على البلدية، لكن المستفيد في النهاية كان الإسلاميين، كما حدث في كفر قاسم. وكان اللقاء بهم مناسبة لقياس الهوة بينهما: هو أصبح بيروقراطياً؛ موظفاً؛ دبلوماسياً؛ عادياً؛ وهم تحولوا إلى محامين ومقاولين في قطاعات متعددة. لم يربط نعيم عودته باعتقاده بعودة السلام؛ صحيح أن الدولة آتية، لكن الصراع مستمر. فلا شيء أنجز: لا الحدود، ولا المستوطنات، ولا اللاجئين، ولا "حق العودة"، ولا "أملك الغائبين"، ولا مواطنة عرب إسرائيل. عاين نعيم في رام الله أيام العنف التي بدت كأنها بروفة عامة للانتفاضة الثانية التي انفجرت في سنة ٢٠٠٠، وشكلت له إشارة إلى موت نهائي لنوع من البراءة والثقة غير

التي قامت بين منظمة التحرير الفلسطينية ورئيس الحكومة الإسرائيلية يتسحاق رابين في لندن أولاً، ثم في أوسلو، والتي كان الرئيس الأميركي الأسبق كلينتون يتابعها عن كثب، وقد فضل الدور النرويجي على الدور الأوروبي. لكن نعيم لم يكن في صورة ما يجري في هذه القناة التفاوضية. وفي أيلول / سبتمبر ١٩٩٣ تموقيع على الاتفاق في البيت الأبيض، ولم يكن ما تحقق متوقفاً من أحد: الاعتراف المتبادل، وإقرار إسرائيل بالحكم الذاتي للأراضي المحتلة ومنظمة التحرير كسلطة انتقالية شرعية. لكن كل هذا بدا غير كافٍ: لم يطلق السجناء؛ تقييد حركة انتقال الأشخاص ما زال مستمراً؛ الضفة الغربية معزولة عن غزة؛ القدس ممنوعة على الناس؛ الاستيطان مستمر. وأتى اغتيال رابين في تشرين الثاني / نوفمبر ليسم الأوج ويعيد المنطقة إلى حلقة الرعب والدم والحقد والألم. في سنة ١٩٩٥ ترك

التضامن الأممي؛ الإرث الثوري. ونُسبت الخسارة إلى طبيعة "البورجوازية الصغيرة" في الأنظمة العربية، وتم الاقتناع بأن العودة تمر عبر "الوحدة": الثورة العربية الاشتراكية المدعومة من الكتلة السوفياتية. وخلال عقدين تواجه الاشتراكيون والشيوخيون بشأن المسألة القومية. وفي نهاية الخمسينيات طلبت حركة القوميون العرب من مثقف فلسطيني هو الحكم دروزة أن يضع عملاً نظرياً يدحض الماركسية والموقف الشيوعي من المسألة القومية العربية، وأنهاه في سنة ١٩٦٧ عندما وقعت الهزيمة. وحينها تحولت الحركة إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وتبنت الماركسية اللينينية. ومنذ سنة ١٩٦٨، بادرت النواة الصغيرة من المناضلين الماركسيين فيها في القدس الشرقية إلى بدء حوار مع الإسرائيليين من حزب ماتسبن.

رقصة الدبابات

يضيء هاليفي على المفاوضات السرية الموازية

والمقيمة في شقته في البلدة،
والتي كان انطباعها أنه
كلما اشتد الحصار على
المقر الرئاسي، وتقدّم جنود
الاحتلال، انكشفت النواة
الرمزية للدولة المحاصرة.

عفيف عثمان
باحث وكاتب لبناني

هاليفي على حصار الجيش
الإسرائيلي للرئيس ياسر
عرفات في مبنى المقاطعة
في رام الله، مقروناً بمجازر
بحق الفلسطينيين، ولا سيّما
في مخيم جنين. والشاهد
العيان على الأحداث هو
صديقة نعيم (الموجود في
باريس) المدعوة كارول،
حاملة الجنسية البريطانية،

المبررة في "نهايات سعيدة".
ولم يكن انتخاب جورج
بوش خلفاً لكلينتون من
خلال التلاعب بالأصوات،
وحوادث
أيلول / سبتمبر ٢٠٠١، إلاّ
وضعاً للعالم بأسره في ظل
الهيمنة الأميركية.
"رقصة الدبابات"
هو التعبير الذي يطلقه

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(قضايا استراتيجية - ٢)

الصناعات الأمنية الإسرائيلية

الوظيفة الاستراتيجية والاقتصادية

إشراف وتحرير

أحمد خليفة

١٠٤ صفحات ٥ دولارات